الاكتساب اللغوي

يحتل حقل اكتساب اللغة عموما، موقعا مركزيا في النظرية اللسانية الحديثة، إذ استنفدت الأسئلة حول ماهية النظام اللغوي وكيف تكتسب اللغة الكثير من الأبحاث والدراسات في الخمسين سنة الماضية. بل إنّ إحدى الظواهر الأساسية التي جاءت اللسانيات التوليدية لتفسيرها هي الطريقة التي تكتسب بها اللغة. فاكتساب اللغة في اللسانيات التوليدية فطري تقوم به أداة خاصة في عقل الإنسان ناقضة بذلك ما كانت تنادي به النظرية السلوكية من أن تعلم اللغة عادة كالعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان من المجتمع المحيط به، اعتمادا على مبدأ المثير والاستجابة.

يرتبط مصطلح الاكتساب بكيفية تمكين الطفل من تعلم لغة ما ، وغالبا ما تكون لغة المنشأ، ويستعمل مصطلح اكتساب بدل تعلّم لأن تبقين الطفل لغة المنشأ يختلف عن تعلمه لغة أخرى.

ويؤكد تشومسكي الفكرة السابقة من خلال تقديم عدة أسباب :

*يولد الطفل ولديه قدرة لغوية خاصة .

*يكتسب لغة المنشأ تلقائيا ، حيث يكفيه العيش في محيطها، دون الحاجة إلى تصحيح الأخطاء التي يقع فيها.

*تتطور القواعد اللغوية لديه لا شعوريا باستعمال اللغة وسيلة للتواصل .

ومن الفروق بين مصطلحي اكتساب اللغة الأولى وتعلم اللغة الثانية ، نذكر :

1-إن آلية اكتساب اللغة الأولى تختلف كليا عن آلية تعلم اللغة الثانية ، وذلك أن العملية الأولى طبيعية والثانية اصطناعية.

2- إن عملية الاكتساب تساير مراحل نمو الطفل ، بينما آلية التعلم تنبني عليها.

3-يشير مصطلح اكتساب اللغة عموما إلى العملية التي تنمو بها القدرة اللغوية لدى الإنسان، وكذلك إلى نمو اللغة لدى الأطفال، في حين يشير مصطلح تعلم اللغة الثانية إلى نمو اللغة لدى البالغين.

4-إن اكتساب اللغة الأم هو مجال يتصل بعلم النفس اللغوي، أما تعزيز تعلم لغة ثانية ، فهو مجال علم اللغة التطبيقي ، ويتصل بالتخطيط اللغوي والسياسة اللغوية .

ويمكن أن نشير إلى فروقات أخرى في المجالات الآتية :

*المجال العصبي الفيزيولوجي *المجال النفسي *المجال العقلي المعرفي*المجال اللغوي .

1- المجال العصبي الفيزيولوجي:

إن مرحلة اكتساب اللغة الأولى عند الطفل تكشف عن ذلك التوافق بين مراحل النمو العصبي الفيزيولوجي ، أي يكون نمو الأعضاء تدريجيا وموافقا لمراحل تطور اللغة بدءا من مرحلة الصراخ فالمناغاة فمرحلة الكلمة الأولى ، فمرحلة الجملة الناقصة ثم مرحلة الجملة التامة أو المركبة.

ويمتلك آليات معدة سلفا كجهاز النطق والاستعدادات الوراثية للكلام . حيث ينشط في المرحلة الأولى جهاز النطق بشكل الي وعفوي بحكم عدم نضج العضلات الصغرى، وفي الوقت نفسه عدم التآزر الحسي الحركي، ليتطور الطفل تدريجيا إلى القدرة على التحكم في عضلاته وجهازه النطقي ، وكل تطور في ذلك الجهاز وتلك العضلات يصحبه تطور في اللغة ، وبالتالي التحدث بشكل إرادي وعفوي.

بينما بالنسبة لتعلم اللغة الثانية فإن العملية تبدا وجوبا من الإرادية إلى الآلية من خلال إرادة الفرد على تدريب وتشكيل جهازه النطقي وفق أصوات ومفردات وأسلوب اللغة الجديدة، لكن

في مراحل عمرية متقدمة ، ولا توجد مراحل عصبية متميزة كما هو الحال بالنسبة لعملية الاكتساب ، حيث تتبني عملية التعلم على أرضية الاكتساب عصبيا وفيزيولوجيا.

2–في المجال النفسي :

تمثل اللغة الاولى بالنسبة للطفل أهم شيء ، وحتى يتمكن من السيطرة عليها، والتحكم فيها، فإنه يخضع لدوافع نفسية عميقة . ذلك أنها تعتبر بالنسبة إليه اللغة الأكثر اقتصادا والأكثر فعالية لإشباع حاجاته الحيوية ، مثل : الحاجة إلى التحرك في محيطه، الحاجة إلى الاندماج، والحاجة إلى إثبات الذات كفرد متميز .

كما أن الطفل يجد نفسه أمام واقع يحفزه ويدعم رغبته ويشحن دافعيته لاكتساب لغة محيطه الاجتماعي ، لأنها تشكل بالنسبة إليه مفتاح الاندماج والتكيف نظرا لوظيفتها الحيوية في كل مجالات حياته اليومية.

أما بالنسبة لتعلم لغة ثانية ، فإن الدوافع لذلك التعلم تكون سطحية وثانوية ، من ذلك الدافع العقلي كالفضولية ، والدافع العاطفي كحب التفوق الدراسي وحبّ اللعب، أو لسبب بسيط أنها لغة إجبارية تفرضها المناهج الدراسية.

ومن ثمّ فإن الجهد المبذول من طرف الطفل لاستيعاب هذا النظام الاتصالي والتعبيري باللغة الجديدة سيكون أكبر بكثير من الجهد المبذول في اللغة الأولى. كما أنه يحدد بالنسبة إليه كبحا عميقا نتيجة ارتباط الذات بلغة الأم . بل إن الطفل يحس بأن هويته هي المعنية عندما يجد تفكيره يتشكل لفظيا بسلّم جديد من القيم والتصنيفات العقلية المتصلة بتمثيلات مغايرة للواقع المعيش. أي أن الطفل عند تعلمه لغة ثانية او لغة أجنبية في المدرسة يجد نظامه العقلي يتشكل بمفاهيم وقيم تختلف عما ألفه بلغة أمه (اللغة الام، الأولى) وبالتالي ينتابه إحساس بأن كيانه وهويته معرضتان للخلل ، وهو ما يجعل دافعيته في تعلم لغة أجنبية او ثانية أضعف مقارنة بما هي عليه في اكتساب اللغة الأولى.

3-في الجانب العقلي المعرفي :

يكمن الفرق بين الآليتين السابقتين على هذا المستوى في مسألة الانتقال من الخبرة إلى اللغة او العكس. ففي مرحلة اكتساب اللغة الأولى ينطلق الطفل من الخبرة المباشرة إلى اللغة ، بمعنى أن الطفل يحتك بالأشياء والمواقف ويتعرف على وظائفها ومعناها مباشرة ، ثم يكتسب ترميزها اللغوي المعبر عنها أو دلالتها.

كما ان الملفوظات اللغوية المكتسبة تعيد تنظيم الخبرة الأولية للفرد وتتسامى بها على شكل حكمة يتقاسمها مع أفراد مجتمعه، حيث لا يفرق بينها واللغة. بل أكثر من ذلك تترجم الخبرة ليكون لها معنى عام معيش ، لتندمج وسلوك الفرد وتصير جزءا منه.

بينما عند تعلم اللغة الثانية فإن العملية عكسية ، حيث تبدأ من اللغة أولا ثم تأتي الخبرة التي يعاد تنظيمها بلغته الأولى . بمعنى أن الطفل يتعلم اللغة أولا ثم ينتقل إلى الخيرة التي تحويها بعاكس لغته الأولى.

وهنا يمكن أن نلحظ التداخل بين الترميز اللغوي الأول والترميز الثاني ، ذلك ان تفسير الخبرة لا يكون بمعزل عن اللغة الأولى .

4-في الجانب اللغوي :

إن ما ينتجه الطفل أثناء اكتسابه اللغة الأولى حسب قواعد التواصل هو ما يكون الخبرة التعبيرية للطفل ، دون تدخل المتحدثين المحيطين به ، ودون فرض قواعد معينة ، او تصحيح أو تهذيب. في حين بعد نضج الطفل وتعلمه في المدرسة سيكتشف تدريجيا نظام اللغة الأولى ، ويتعرف على مجالات استعمال مختلف الصيغ اللغوية وكيفية بناء الجمل الصحيحة في مختلف المواقف والوضعيات.

أمّا إذا نظرنا في تعلم اللغة الأجنبية أو الثانية ، فنجد أن الطفل يتعلم النظام اللغوي اولا ليصل فيما بعد بعد فهمها واستيعابها إلى استعمالها في الخطابات والاتصالات الرسمية والتعليمية بشكل عفوي وآلي ، اي أن العملية هنا تكون عكس ما في اكتساب اللغة الأولى.

بعض المراجع :

*بشير إبرير وآخرون: مفاهيم التعليمية بين التراث والدراسات اللسانية الحديثة.

*سوزان جاس ولاري سلينكر : اكتساب اللغة الثانية ، مقدمة عامة الجزء الأول ، تر : ماجد الحمد.

*شارل بوتون : اللسانيات التطبيقية